الغرائز في نظر المسلكي

للدكتور جون ب. واطسن
زعيم المدرسة المسلكية في علم النفس والاستاذ بجامعة جونز هبكنز

ما حقيقة الغرائز ؟ وهل للناس غرائز ام هم خالون منها ؟

ان الفكرة الشائعة اليوم عن الغرائز تعود في اصلها الى داروين — ذلك ان القول باشتراك الانسان والحيوانات الاخرى الادنى منهُ في الانحدار من اصول واحدة يحتم ايضاً اشتراكهما في الكثير من اوجه التشابه الاخرى . فنحن نستألف حيوانات برية صغيرة لا عهد سابق لها بكيفية بناء الاوكار ولكنها لا تلبث ان تقيم اوكاراً لها كما يُقيم نوعها اوكارهُ التي يعيش فيها — والاستشهاد بالحوادث التي من هذا القبيل بين الحيوانات اكثر من ان يحصرها العد

ولما كان تاريخ تكوين الانسان هو في الواقع تاريخ تطوره من الاصول التي يشترك فيها مع الحيوانات الادنى منه ، فحتوم في هذا ان نجد في الانسان عدداً من الغرائز تشابه الغرائز التي في الحيوانات . و « وليم جيمس » لا يكتفي بالبحث في هذا الشأن وانما هو يحصر الغرائز في الانسان في عدد معين يذكر منها الميل الى التسلق والتقليد والتعصب والصيد والخوف والغيرة والعطف والحب والحياء الى آخر تلك السلسلة

والقول بأن للانسان غرائز مشابهة للغرائز التي في الحيوانات مسألة تتسق كل الاتساق مع نظرية داروين — ولكن لا داروين ولا جيمس خطر لهما ان حقائق هذه المسألة قد تكون على خلاف ما قدّراه دون ان تتأثر المسألة في ذاتها مع نظرية داروين من حيث التسلسل والوراثة . على ان كل رجال العلم البيولوجي والمدرسة المسلكية يؤمنون بنظرية التسلسل اعني انهم يؤمنون بأن تاريخ تكوين الانسان هو تاريخ تطوره من نطفة الحياة الاولى الى ان وصل الى حالته الراهنة وليس من فرد واحد صحيح الثقافة ينكر ذلك اليوم

وهذا الايمان التام بنظرية التسلسل لا يضطرنا بأي وجه ما الى الاخذ برأي من يقولون بامكان معرفة غرائز الجيل الذي قد يخرج من اصل معروف ، قبل خروج هذا الجيل الجديد ذاته

ولنفترض مثلاً ان اقرب الاسلاف الينا هي القرود ، فحتى ظهور النوع الانساني من تلك الارومة الاصلية لم يكن متيسراً ان يعرف احدٌ المؤهلات الوراثية لهذا الجيل

الانساني الجديد ما عساها ان تكون . ولنفترض افتراضاً آخر هب ان عمل النشوء في الانسان لم يتمّ بعد وهب ان الانسان الحالي قد ينقلب بحكم عوامل بيولوجية طارئة الى جيل مولد ، وان يخرج منه بعد ذلك جيل ذي اجنحة — فليس في مقدور احد ان يعرف مؤهلات هذه الخلائق ذات الاجنحة ما عساها تكون قبل ظهور الخلائق ذاتها . ومهما تكشفت عنه مؤهلات تلك الخلائق الطائرة وما عساها ان تكون فليس في هذا كله ما يغير الحقيقة الواقعة وهي ان هذا الجيل الطائر اشتقّ من الانسان مثل ما اشتق الانسان الراهن من اصول ادنى منه — وهذا الذي نقرره الآن يمكن تطبيقه على غرائز الانسان الحديث فنجرّد أن الانسان حلقة من سلسلة طويلة من التسلسل لا يكفي برهاناً على وجوب حيازته غرائز مثل الاصول التي انحدر منها ، مفترضين ان للحيوانات غرائز كما يزعمون

ومراقبة الطفل فقط منذ اول ولادته ومتابعة ذلك مدى السنين الاولى من حياته تمكننا من الحكم في : هل للانسان غرائز اكثر مما للحيوانات او اقل ام إنهُ ليست له غرائز بتاتة وليس لدى داروِن ولا جيمس اساس صحيح يستندان اليه في دعم ما قدّراه بشأن الغرائز

ولكن ليس هذا الذي ذكرناه هو جماع ما يتعلق بالنظرية الشائعة عن الغرائز — والانسان ليس له جسم فحسب وانما له عقل ايضاً ، وان كان لهذا الجسم تاريخهُ من التسلسل فالعقل لهُ تاريخهُ هو الآخر من ذلك التسلسل عينه ، وعلى هذا فمحتوم ان نجد ميزات عقلية في الانسان شبيهة بامثالها في الحيوانات ، ولغاتنا حافلة بالالفاظ التي تشير الى تلك الحيوانات فنحن نصف المرء بأنهُ ماكر كالثعلب وبصير كالقطا ، وغير ذلك من الصفات التي تدل على قرابتنا من اسلافنا الحيوانات . وان صح أننا ورثنا كثيراً من الميزات العقلية عن اسلافنا الحيوانات افليست الوراثات التي تلقاها من اسلافنا الناس الاولين اكثر واشد أثراً فينا ؟

وعلى هذا الحكم اخذ رجال العلم البيولوجي بوراثة الميزات العقلية وانت كثيراً ما تسمع من يقول لك « ان فلاناً من الناس قد ورث مواهبهُ عن ابيه في كيت وكيت » وان آخر « رجل سياسي منحدر من سلسلة طويلة من السياسيين المعروفين وهكذا »

ثم جاءت « اليوجنية » فاكثر رجالها من الدعاية لفكرة الغرائز ووراثة الميزات العقلية وقد اجرى رجال « اليوجنية » كثيراً من التجارب بين العائلات الموهوبة ثم قرروا ان المواهب تنحدر الى النسل بالوراثة ، بل هم ذهبوا الى ابعد من هذا وقرروا ما قال به « نيتشه » من وجوب حصر الزواج في الفئات الموهوبة حتى ينتهي الامر الى اخراج جيل من الناس كلهم موهوبون . وهذا الايمان القوي بالوراثة من شأنه ان يزعزع نظام الزواج الحاضر وهو أشد خطراً من البلشفية . وهو بدعة من بدع الناس في سبيل تصور الخلود ،

لان هذا التوارث التعاقب وانحدار الصفات من السلف الى الخلف معناه الخلود ، وحتى البعض منا ممن لا يؤمنون بالحياة الاخرى بعد الموت تراهم يصطنعون خلوداً آخر وذلك من طريق انتقال صفاتهم الى ابنائهم وهؤلاء ينقلونها الى الاحفاد وهكذا دواليك ، يعني ان صفات الناس تعبر عنها شخصيات الجيل الذي يأتي بعدهم ، والانسان يأبى ان يستسلم للموت وسلطان القبر

وظاهرة اخرى نراها ماثلة بيننا من جراء هذا الاعتقاد بالوراثة ذلك انه حين يرزق الانسان ابناء قاصرين ويحاول التخلص من مسئولية قيادهم تراه يقول «وما شأني في هذا كله . . . انهم ورثوا طباع السوء من ناحية امهم . . . والطيبة فوق التربية وفوق التدريب»

— ٢ —

والآن ما هي الحقائق التي اكتشفها رجال السلكية عن مسألة الغرائز والوراثات

ان رجال السلكية يجدون في المولود الانساني قطعة غير مصنوعة من «البروتيلازم» قابلة للتكيف حسب الايدي التي يقدر لتلك القطعة ان تقع في عنايتها . وهذه القطعة من «البروتيلازم» تتنفس وتتناغى وتضرب يديها ورجليها وتحرك اصابعها وغير ذلك أعني انها تجيب عن كل مؤثر يصلها من الخارج او من الداخل وهذا هو الحجر الاساسي الذي يستند اليه السلكيون في مذهبهم وهم يقدرون انهم لا يرون في هذا كله أثراً لقائمة الغرائز التي تكلم عنها « وليم جيمس »

اما رجال العلم البيولوجي واليوجنية فيجيبون على دعوى السلكيين بقولهم « ولكنكم لم تلاحظوا الطفل الا في مدى سنتين او ثلاث سنوات من حياته ومعظم الغرائز والميزات العقلية والمواهب والكفايات الموروثة تبدو في الانسان بعد ذلك الطور من حياة الانسان »

فيعترض السلكيون على ذلك بقولهم « حسن . نحن قد لاحظنا الطفل في سنيه الاولى واما انتم فلم تلاحظوه قط فعليكم انتم حجة البرهان فارجعوا الى تلك الطفولة وابحثوا فيها عن المواد التي سوف تكوّن لكم ذلك الكائن الحي الذي تريدون ملاحظته في تقدم السن»

الا ان التربية والتدريب والتأثر بالوسط وامثال هذه تبدأ عملها في الطفل مبكرة جداً وهذا اساس مذهب السلكيين فهم لا ينكرون ان السنتين الاوليين من حياة الطفل هما اخطر طور في تكوينه واذا لم تسجل مطالعات عن حركات الطفل في هاتين السنتين فليس الى الملاحظة عنه بعد ذلك من سبيل علمي

ومحاولة ملاحظة الطفل في الثانية من عمره دون وجود سجل سابق عن حركات الطفل في ما مضى انما هي محاولة فاشلة . وفي نهاية السنة الثانية من حياة الطفل يكون مزاجه قد وصل في تكوينه الى حد بعيد فتظهر فيه الميول الى الاشياء وتصبح هذه الميول

واضحة الطابع حتى أنهُ يستحيل معها ان يُجرَّدُ الطفل قطعة من المادة الخام كما كان حين ولادته ولا ان يجري فيه رجال العلم البيولوجي تجاربهم من الفحص والامتحان

فاذا سمع المسلكي جماعة العلم البيولوجي والفحص العقلي يقولون ان توريث المواهب في الاسر الموهوبة اكثر مما تقتضيه الصدفة ضحك لانهُ يرى في دعاويهم تأييداً لقوله. لانهُ اين تجد الطفل الذي يتأثر سمعه بالموسيقى وهو لدن لين في غير العائلات المعروفة بالفن الموسيقي ؟ واين تسمع الطفل الذي يقول لك «أنا تعب اليوم وقد شغلت كثيراً الليلة ويظهر اني مصاب بشيء من الزكام ويجب الا أذهب الى المدرسة» ان تسمع هذا في غير الاوساط الطبية

وهنا نصطدم بمشكلة اخرى هي هذه : ان صح هذا الذي قدرناهُ فماذا لانجد ان كل ابناء الناس الموهوبين موهوبون هم انفسهم ؟ وانما تقتصر تلك المواهب الموروثة على بعض الابناء دون البعض الآخر . وليس حلُّ هذه المسألة بالامر العسير — فانت قد تسمع رساماً يقول لك « ان ابنتي اظهرت منذ طفولتها ميلاً ظاهراً الى الرسم حتى انها ابدت دلائل مقدرة فائقة فيه وهي بعد في سن صغيرة مع اني لم اعلمها الرسم ، اما ابني فتصرف عن الرسم كل الانصراف وليس الى تعليل ذلك من سبيل الا قولي ان ابنتي قد ورثت ميلها للتصوير عني انا واما الولد فقد ورث بغضهُ للرسم عن امه » . هذا ما يقوله الرسام ولكن ليس من السهل ان تقنع الرجل بانهُ كان كثير الانتباه لابنته فباتا هذا البناء الذي هي عليه في حين ان الام كانت تكره لابنها ان يحترف بمهنة ابيه فبغضتهُ بها

فهل نفهم من كل ما سبق ان ليست هناك وراثات ؟ لا وانهُ لسخف ان تنكر الوراثة والانسان قد خلق انساناً لا قفراً . فنحن لنا عينان قد ركبنا تركيباً من شأنه ان يجعلنا نرى الشيء الواحد واحداً بكلتا العينين معاً ولسنا نحن كالخيل التي لا ترى الشيء الواحد واحداً بكلتا العينين الا عن قرب — ثم ان لنا ذراعين ورجلين وعشرة اصابع في ايدينا وأخرى في ارجلنا وهذه كلها مما يسهل علينا تعلم الاشياء اكثر مما يسهل على الحيوانات تعلم ذلك

وأصابع ايدينا اكثر تكيفاً للحركة من اصابع ارجلنا ولهذا فنحن نستعملها دون اصابع الارجل في اعمالنا ، ولكن اذا فقدنا اصابع ايدينا استعضنا عنها باصابع ارجلنا فمن الناس من يكتب بأصابع رجليه . ورجال المسلكية يعترفون بكل هذا الا انهم يقولون ان كل هذا شيء لا خطر له اذا قارناه بما يستطاع تدريب الطفل عليه — ويمكن تلخيص المذهب الذي يستندون اليه في تعاليمهم في الآتي : —

هم يقولون انهم يستطيعون — اذا سنحت لهم الفرص — ان يتناولوا منازع الطفل الحديث الولادة من مثل حركات الاصابع والذراعين وحركات الجذع وغيرها قبل ان

تأثر بأية مؤثرات من شأنها ان تكيفها تكيفاً ما ثم يحولوها بتدريبهم لها الى الوان دقيقة النظام من مختلف الاعمال. بل هم يذهبون الى ابعد من هذا فيقدرون انهم يستطيعون ان يتناولوا المنازع البدائية في الطفل من مثل حركات الذراعين والرجلين والاقدام ثم يحولوها الى اعمال غاية في الدقة من نقش وتسلق وسير وما الى ذلك ، وان يتناولوا حركات الحلق والحنجرة ثم يحولوها الى اعمال دقيقة من الغناء والكلام ، وان يتناولوا حركات بعض آلات الجسم الداخلية فيحولوها الى ما يعرف بيننا بالخوف والحب والغضب وغير ذلك

ورجال المسلكية لا يطلبون اكثر من المنازع البدائية التي يراها في الطفل الحديث الولادة — بل هم يقولون اعطونا مائة منزع من تلك المنازع البدائية تصرف في ترابطها كيف شئنا تصرفاً حسابيًّا ثم انظروا بعد ذلك ما عسانا ان نخرج منها ؟

ولنفترض ان العالم قد يطغو عليه طوفان يغمره بالماء الى علو ست اقدام ، ولنفترض ان كل ادوات الناس التي يستعملها قد تلاشت في ذلك ، وان كل ما يبقى ظاهراً على سطح الماء هو اعالي الاشجار ، فسرعان ما نجد ان منازع الانسان الخفية قد تحولت الى حركات تمكنه على التسلق فالقفز فالتعلق من نوع الى آخر

فانظر بحقك الى مبلغ ما تحول اليه استعدادات الناس الطبيعية الى ما يحتاج اليه عند الضرورة

ونظرية المسلكيين في بناء الانسان بناء جديداً ليست مبنية على طلاسم والغاز وانما هي خروج من الدائرة الضيقة التي يحصر ضمنها الناس منازعهم الضيقة . فالانسان في عصور الاستبداد اظهر براعة معجزة في الاشغال اليدوية مما لا نزال نرى آثارها حتى اليوم — ونحن لا نحذ تلك الصور المظلمة وانما نريد ان ندل على مبلغ ما يستطيعه الانسان من طريق التدريب وعلى مبلغ ما يمكن ان تكيف اليه المنازع الى ما يحصى له عدد من الاشكال والنماذج

ورجال المسلكية لا يعترفون للبناء التشريحي بما يعترف له الناس من الخطر . بل يقولون اعطونا الطفل والوسط اللازم لتنشئته ونحن نخرجه يزحف ويمشي ويتسلق ويستعمل يديه في بناء المباني من الحجر والخشب . بل نحن نخرجه لصًّا او مدفعيًّا او مدمناً ، بل يقولون اعطونا الانسان بدون يدين ونحن نخرجه من معملنا يكتب ويرسم ويطبع ، وآخر بدون عينين ونحن نرده لكم يقرأ وينقش ويصطاد ويلعب الهوكي على الجليد ، وثالثاً اصم ونحن نجعله يحادثك ويفهم ما تقول بملاحظته اياك وأنت تتكلم او اعطونا اياه اصم ابكم ونحن نخرجه لكم من جديد شخصاً آخر كهلن كلر . وهم يقولون بأن الوراثة بمعنى الغرائز والميزات الموروثة من كفايات وميول وما الى ذلك ، يجب ان تحتجب وراء الستار حتى يقوم ما يثبت دعواها حق الاثبات

ترجمة وتلخيص : يوسف حنا

فرجيل يتلو قصيدتهُ الايذ على الامبراطور اغسطس قيصر واختهِ ورجال البلاط